على تخوم المدينة

قصة بقلم جورج سالم

ستقولون لي ، وابتسامة ساخرة ترتسم على أفواهكم ، لقد كان الخطأ خطأك . وتلك المقدمة لا يمكن أن تفضي الا الى مثل هذه النتيجة، والا فهل يعقل أن يتخذ الانسان من المقبرة البعيدة الجاثمة على تخوم المدينة ملتقى غراميا ، ومكانا يتبادل فيه العشاق الهوى ، ويتطارحون فيه القبل ؟ والمدينة واسعة واسعة وفيها ألف مكان ومكان ؟ ! وانها لظاهرة مضحكة ولا ريب أن يعدل المرء عن المتنزهات والمقاهي والمنازل حيث ألف الناس أن يتواعدوا ويلتقوا ليؤم المقابر ، هناك حيث لا تجد الا الوحشة والكآبة والموت المقيم ؟ !

لا شك في أنكم مصيبون فيما تزعمون ، الا ان لي أنا أيضا مبرراتي. اذ كيف ترون أن المدينة واسعة وهي في نظري ضيقة شديدة الضيق لا يكاد الانسان يجرؤ أن يخالف فيها أبسط ما تعارف عليه الناس من قيم ومفاهيم ، وهو ان تجرأ على ذلك سلقه الناس بألسنتهم ، وعرض نفسه وسمعته لشائعات قد يكون لها أساس ضئيل من الحقيقة ، ولكنها لا تلبث أن تتخذ من الخيال مطية فتجنح الى حيث لا يخطر ببال أحد . بل كيف يصح ان نزعم ان المدينة كبيرة واسعة ما دام كل فرد فيها يعرف كل الناس ، وليت معرفته تقتصر على وجه الشخص أو اسمه ، انها لتتعدى ذلك الى كل كبيرة وصغيرة تتعلق به أو باسرته أو بأجداده ، وهكذا فان أقل حادث يقيم المدينة ويقعدها . الناس في مدينتي ، كما تعرفون ، يحبون الفضائح لا ، بل يعشقونها كما كنت أعشق صديقتي تلك ، ويحومون حولها كما كنت أحوم حول الصديقة . أفلا تنتقدون اذن أن مدينتي ليست واسعة ، بل ليست مدينة على الاطلاق ؟ انها قرية كبيرة وحسب . لهذا كله أعتقد أن صديقتي كانت على صواب في مخاوفها الكثيرة وفزعها الشديد من أن تقع علينا عين ، أي عين ، ولعلكم أدركتم ، للوهلة الاولى ، أن علاقتي بصديقتي لم تكن بالعلاقة السليمة نظرا لهذا الهرب الدائب الذي كنا نقوم به فزعين وجلين من عيون الناس ـ يا لعيون الناس في مدينتي ، ما أشد اتساعها ونفاذها ! ـ وأنتم تذكرون أن آدم نفسه لم يجد حاجة الى ستر عريه ألا بعد أن اكل من الثمرة المحرمة ، أليس كذلك ؟

ولا تظنوا انني اهتديت الى هذه المقبرة بيسر وسهولة ... يعلم الله اني ما اكتشفتها الا بعد عناء وتعب طويلين ، وكان اهتدائي اليها في احدى اللحظات المبدعة التي تومض في فترات نادرة في ذهن الانسان فيلتمع ذكاؤه ، ويتفتق ذهنه عن امور لا تخطر له في الحالة الطبيعية قط ، ولكنني ادركت فيما بعد ، ان صديقتي هي التي كانت قد اوحت الي بهذه الفكرة منذ اسابيع ونحن نتجول حول المدينة بسيارتي الصغيرة ، وراحت الفكرة تدور في ذهني حتى انبجست ذات يوم على شكل سؤال اذ قلت لصديقتي :

ـ هل يضيرك ان ندخل المقبرة لنتجول فيها قليلا ؟

وتظاهرت اول الامر بالتردد ثم رأيتها توافق وكأنها تفعل ذلك اكراما لي ، ومن يدري فلعلها حملت غيري من قبل على ولوج هذه المقبرة النائية، فقد شعرت ونحن نسير فيها انها تعرف مسالكها ودروبها معرفة دقيقة ويجب ان اعترف بانني شعرت لدخولي هذه المقبرة للمرة الاولى بكثير من الضيق والانقباض ، ولكن ما حيلتي في الامر ، فقد كانت الظروف كلها ضدنا ولم نكن نستطيع ان نلجأ الى مكان امين ، كما قلت لكم انفا.

اتقولون لم لا تحملها الى منزلك استر وافضل ؟ يظهر انكم لم تصدقوا ان ظروفي صعبة ؟ حسنا فماذا افعل بامي واخوتي الذين لا يبرحون المنزل الا لماما ، ففي المنزل دائما اكثر من فرد من افراد الاسرة. قد يقال يمكن التغلب على هذا ، فلا بد ان يذهب الجميع ذات يوم لزيارة ، او الى السينما او الى اي مكان اخر ، ولكن ما قولكم بالجيران الذين يطلون دائما من نوافذهم ويرقبون من يذهب أو يجيء ومن يزور او يزار ؟! لقد قلت لكم أن مدينتنا أشبه شيء بقرية واسعة . فلتصدقوني !

اسمع بينكم من يقول : اذن فاذهب الى منزلها . اه ، لا ، لقد بدا عليها غضب عنيف حين المحت الى هذه الفكرة امامها ذات مرة . وهي مصيبة في ذلك كل الاصابة . حماتها ! والخادمة الشابة التي جاءتهم من القرية لتخدم في المنزل ليل نهار . واولادها الاربعة ! وزوجها! اه زوجها ذلك الرجل الفارع الطول ، القوي الجسم ، صاحب المحل التجاري المعروف ! لا ، لا ، ان فكرة الذهاب الى بيتها وحدها ترهبني وترهبها معا .

ـ ليس عليك الا ان تتركها والسلام

هذا كلام يسهل قوله ، اما تنفيذه .. حسبكم ان تعلموا ان هذه التجربة هي أولى تجاربي مع المرأة ، انا الشاب الذي لم تكن له حتى هذا العمر تجارب تذكر في هذا المضمار . يا للبطولة الزائفة ! فلست انا الذي بدأ هذه العلاقة او انشأها بل هي . اجل ، ولعلها لو لم تحملني اليها حملا لظللت في موقفي لا ابرحها ابد الدهر . كان ذلك في منصرفنا من سهرة صاخبة اقيمت في منزل صديق لي ، وكنت قد تعرفت على صديقتي وزوجها في منزل هذا الصديق نفسه منذ شهور ، وبينما نحن على عتبة الدار عرضت على بعض الساهرين ان اوصل من يشاء منهم بسيارتي الصغيرة ، فرفض الجميع دعوتي شاكرين اذ كانت سياراتهم ملء الشارع . ووجدت السيدة صديقتي تقبل الدعوة ولا يجد زوجها مانعا في ذلك ، فسيارته رهن الاصلاح . كان الليل قد مضى اكثر من نصفه ، والصخب ملأ رؤوسنا جميعا ، وسارعت المرأة ففتحت باب السيارة الامامي وجلست الى جانبي بينما جلس زوجها خلفنا وهو بين نائم ويقظان ، وسارت بنا السيارة ببطء . كان الطريق الى منزلهما طويلا معتما ، والشوارع هادئة ساكنة ـ وذاك طبيعي ، ففي مدينتنا ، ينام معظم الناس في ساعة مبكرة ـ واحسست بعد فترة بيدها تضغط على اصابعي وهي تميل علي وكأنها تريد ان ترشدني الى الشوارع التي يجب ان اجتازها . ومنذ ان وضعت يدها علي للمرة الاولى ادركت انني على شفير هاوية ، فحاولت ان اتملص منها ، بل خيل الي انني مخطيء واهم ، الا انها كانت اقوى مني ، ثقوا بذلك ، ولست بحاجة الى ان اشرح لكم ماتلا ، فهي قصة معروفة ، اليس كذلك ؟ مصادفات قليلة في الشارع ، وبعض اللقاءات في منزل الصديق ، ومخابرات هاتفية . وهكذا ... ان الناس جميعا يعرفون كيف تتم مثل هذه الامور ، ومع ايماني بعبث هذه العلاقة وسوئها فانا متشبث بها متعلق، شأني شأن صخرة تتدحرج منحدرة من اعالي قمة شاهقة وتزداد سرعتها لحظة بعد لحظة ، فلا هي تستطيع ان تتوقف ولا هي تجد للرجوع الى القمة سبيلا .

اانا احبها اذن ؟؟ ذاك شعور غير الحب والهوى فيما اعتقد انه مزيج من التعلق والشغف والانسحاق في عالم مكون من عينين سوداوين فيهما أعنف معاني الوحشية والقسوة والخطيئة !!

لا تسألوني لماذا كانت تعرض عن زوجها وتخونه ، فلست املك لهذا السؤال جوابا . ولست اعتقد ان لها مبررا اي مبرر ـ كل ما اعرفه ان الخيانة كانت في دمها وانها ان لم تخنه معي فلسوف تخونه مع سواي . ولم اكن لاضيع مثل تينك العينين السوداوين بأي ثمن .

اتقولون انها قذارة واتساخ منك ، ولكن تأملوا ايها الاحباء ، هذا الهواء الذي نتنفس وحللوه جيدا ، افلا ترون انذاك اننا نتنفس القذارة والاوساخ صباح مساء واننا نتغذى منها وهي في كل قرة من دمائنا ؟!

وحارس المقبرة ؟؟ ذاك انسان ذكي خبير . فحين ولجنا المقبرة من بابها الحديدي الكبير لمحناه من بعيد ، فاقبل علينا بخطى باشة، اغلب الظن انه يعرف صديقتي . لم ينبس الحارس بكلمة وغمزتني الصديقة ففهمت فورا ما تعني . مددت يدي ودسست في جيبه ورقة مالية فاتضحت عند ذاك كل الامور . قلت له بهدوء :

ـ سنقوم بجولة في ارجاء المكان

وهز رأسه موافقا ، ووجهه الهرم الصلب لا ترتسم على غضونه اية تعابير . ولكنه حين لمح ابنته الصغيرة تقترب منا ، انتهرها بسرعة:

ـ ادخلي الى البيت !!

ـ فأذعنت الفتاة توا . ثم اومأ الينا وهو يشير الى ركن قصي في اخر المقبرة قريبا من سورها العالي ، وقال :

ـ هناك اشجار كثيرة ومقاعد حملناها منذ زمن ، يمكنكما ان تجلسا عليها ..

كانت صديقتي قد سبقتني الى ذاك المكان بينما كنت احادث الحارس . الم اقل لكم انها تعرف المكان معرفة دقيقة ؟

وتوالت زياراتنا ..

كانت زيارات مستمرة ، في اوقات مختلفة من النهار ، وفق فراغنا وامكان التقائنا . وكان الهاتف صلتي الوحيدة بصديقتي في مخابرات قصيرة موجزة كأنها برقيات : « اليوم في الساعة العاشرة »ـ « لا استطيع اليوم » . « غدا اذن الساعة الثالثة بعد الظهر » .. «حسنا» وهكذا ..

وكنا اما بلغنا المقبرة اعمد الى قرع بوق السيارة فيطل الحارس مسرعا ليقول لي كلمة او كلمتين ، وكأنه قاض يصدر حكما فاصلا . « اليوم عندنا جنازة » و «غدا قبل الظهر ايضا» . فافهم ما يريد واستدير بسيارتي مسرعا لاضع صديقتي قريبا من احد مواقف الباحات وانطلق الى شئوني . وكان صوته يأتيني احيانا اخرى « تفضل » ! فافهم ان الجو خال وان الجلوس ميسور ـ يا لكلمات هذا الرجل ! ايكون صمت المقبرة قد علمه ان يلتزم الصمت وان يقتصد في القول اذا ما اضطر الى الكلام ؟ ام كانت حاجته الى المال قد جعلته ذكيا حاد الذكاء؟ ولم البث بعد زيارة او زيارتين ان الفت المكان ولم اعد اشعر بالانقباض الذي شعرت به للوهلة الاولى ، واصبحت اجده كأي مكان اخر . ستقولون لي : انت وصديقتك مصابان بمرض نفسي ، ربما صح ذلك . ولكن الم يدر بخلدكم يوما ان معظم الناس مرضى وان الارض مستشفى كبير لا يشفي الناس من امراضهم الا بالموت ؟!

ظللنا على هذه الحال زمنا ... واعذروني ان كنت لا استطيع ان احدده لكم . فقد كنت غائصا حتى قمة رأسي . ومع انني كنت اجد دائما في هذه العلاقة شيئا من المرارة الا انني كنت كعطش امام ماء مالح كلما ازداد شربا ازداد الى الماء عطشه .

الى ان كان يوم .. يوم بعيد ، اذ تلته ايام طويلة وكثيرة ، وقريب كانه هذه اللحظة التي مرت بنا الان .

كنت جالسا الى جانب صديقتي في الظل ، والمكان خال هادىء ، ونسيمات الصبح تحرك اوراق الاشجار بين الفينة والفينة ، وكانت احدى يدي توسد ظهرها ، ظهرها الرحب ، والزمان يسير دون ان نشعر به. وفجأة سمعت صوتا صغيرا خافتا . كان رجل مسن يحفر طرف المقبرة ، غير بعيد عنا ، حفرة صغيرة ، فلم ابال به اول الامر ولكن سرعان ما حدث بي رغبة متطفلة في ان اعرف ماذا يفعل . لمحت بالقرب منه سلة صفراء موضوعة على الارض . وحين انتهى من حفر تجويف صغير جدا في الارض مد يده الى السلة فسحب منها شيئا والقى به بهدوء الى الحفرة ، فسمع له ارتطام .

في تلك اللحظة ذاتها كان جسمي يرتطم بجسم صديقتي ، وسمعت الصوتين في وقت معا . الى اين كانت صديقتي تنظر في هذه اللحظة اعتقد الان انها كانت ترى ما ارى. لانها قالت لي فيما بعد : « لعله اب او جد جاء يدفن حفيدا له مات في اول طفولته ولم ير حاجة لاقامة مراسيم لدفن مثل هذا الطفل الصغير » وسرت رعدة في اوصالي، وشعرت انها هي ايضا ترتجف .

اتقولان ماذا كنتما تفعلان ؟ ان الجواب ليسير . كنا نفجر في جسدينا وحواسنا ينابيع اللذة . وكنا كأنما استحلنا الى جسد واحد يتحرك كدودة بيضاء كبيرة تدب . وجاء الصوت البعيد ، صوت ارتطام الجسد بالتراب ، فأيقظ في شيئا لا اعرفه . توقف فمي عن طبع قبلة كان يهم بها ، وظلت القبلة معلقة بالهواء ، وتراخت اصابعي التي كانت تمسك بالصديقة ، واختلطت في انفي رائحة التراب الذي نثرته ريح خفيفة برائحة عطر صديقتي .

عند ذاك شعرت بثقل جسدها علي فابتعدت عنها قليلا ، وعادت هي الى جلستها العادية تسترد انفاسها . وكانت تفكر صامتة . وظللنا هكذا مدة لست ادري كم امتدت . بم كانت تفكر ؟ لا تحاولوا ان تعرفوا ذلك . لانها لم تنبس بكلمة منذ ذلك الحين ولم يتح لي ان اسمع صوتها. اعتقد ان شيئا قد استيقظ دفعة واحدة في نفسينا معا .

حين فتحت باب السيارة هزت رأسها مودعة بحركة سريعة وسارت في طريقها . اتقولون ان كل الطرق تؤدي الى المقبرة ؟ لا ادري . كل ما اعرفه انني لم احاول قط ان اتصل بها ، ثقوا بذلك . وهي كذلك لم تخابرني منذ ذلك اليوم البعيد القريب . اتراها نسيتني ؟ لست ادري ولا اكتمكم انني شعرت منذ ذلك الحين بالم حاد لم اعرف له معنى اكان ندما مني ام شوقا اليها ؟ ام ضيقا بايامنا ، ام محبة وعطفا على جسد طفل صغير مات من غير خطيئة ؟؟ وكثيرا ما تساءلت في نفسي اتراها عادت الى تلك الزاوية في المقبرة لتزورها وحيدة او مع عشيق لها جديد . ولكن تساؤلي سيظل دائما من غير جواب .

اتعتقدون بعد ذلك كله ان الخطأ كان خطئي . وان تلك المقدمة لا يمكن ان تؤدي الا الى مثل هذه النتيجة ؟

حلب — جورج سالم

في المكتبات

مع الإمام علي

من خلال «نهج البلاغة»

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي يتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تأليف

خليل الهنداوي

منشورات
دار الاداب